جدل الإعلام والسلطة في فكر نعوم تشومسكي، قراءة في الممارسات السياسية للولايات المتحدة الأمريكية.

The controversy of media and power in the thought of Naom Chomsky, a reading on the political practices of the USA.

الميلود عبد الحميد *

- جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

miloudabdelhamid@gmail.com

تاريخ الإيداع:2022/11/24 | تاريخ المراجعة:2023/04/20 | تاريخ القبول:2023/05/25

ملخص:

شكلت مواضيع العولمة والهيمنة الأمريكية، وحرب الخليج وأحداث 11 سبتمبر2001، والمسائل المتعلقة بالتطرف والإرهاب، و القضايا الدولية كالقضية الفلسطينية، والقضايا الراهنة في إفريقيا وأمريكا اللاتينية مواضيع هامة لفكر تشومسكي الذي أعطى للموضوعات السياسية مكانة هامة في كتاباته.

من ناحية أخرى كان للممارسات اللامشروعة للسياسة الأمريكية حضورا كبيرا في كتابات تشومسكي وذلك بفضح ممارساتها المعلنة والخفية في ترويض العالم وبسط نفوذها المطلق عليه، ومنطلقه في ذلك هو أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة القائدة للإرهاب.

ترتبط السياسة بالإعلام بشكل صريح في الراهن السياسي، وإذا كان على الإعلام من حيث المبدأ أن يعمل على فضح الممارسات اللامشروعة للأنظمة السياسية، فإنه على خلاف ذلك أضحى سلاحا بيد النظام، وهذه القراءة التي نقدمها صورة موجزة لطبيعة العلاقة بين الإعلام والسلطة في النظام السياسي الأمريكي المعاصر .

الكلمات المفتاحية: السياسة الأمريكية ؛ نعوم تشومسكي؛ السلطة والإعلام؛ السلطة و صناعة الرأي العام؛ السلطة وتوجيه الرأي العام الدولي .

Abstract:

The themes of globalization and American hegemony, the Gulf War and the events of September 11; 2001, and issues related to extremism and terrorism, and international issues such as the Palestinian issue, and current issues in Africa and Latin America, important topics for Chomsky's thought, who gave political topics an important place in his writings. On the other hand, the illegitimate practices of American politics had a great presence in Chomsky's writings by exposing its overt and hidden practices in taming the world and extending its absolute influence on it, and his premise in this is that the United States of America is the leading state of terrorism. Politics and the media are explicitly linked in the political current, and if the media, in principle, should work to expose the illegal practices of political systemes, otherwise it has become a weapon in the hands of the systeme, and this reading that we present is a brief picture of the nature of the relation between the media and power in the contemporary American political system.

Keywords: American politics; Naom Chomsky; power and media; power and the making of public opinion; guiding international public opinion .

* المُؤلف المُراسِل.

مقدمة:

تلعب وسائل الإعلام دورا حاسما في حضارة اليوم على كل المستويات والأصعدة ،وإذا تعلق الأمر بالجانب السياسي فإن أغلب الحروب النفسية والإيديولوجية سواء في الانتخابات أو صناعة الرأي العام ،أو الحروب أو الممارسات السياسية عامة مرهونة بمدى قوة وسائل الإعلام وطبيعة المادة الإعلامية ،لهذا تراهن الأنظمة السياسية في مختلف دول العالم على وسائل الإعلام والمادة الإعلامية أكثر من أي وقت مضى.

لا ينفصل الإعلام عن السياسة ،وكل المفاهيم التي تصور أن الإعلام يعمل بكل موضوعية وحيادية بمعزل عن التوجيه السياسي مفاهيم صورية في الغالب بعيدة عن الوجه الحقيقي لوسائل الإعلام التي تخضع للتوجيه السياسي والإيديولوجي ، وسلطة رجال المال والأعمال في الغالب ، فبين مؤسسات ومصادر صنع القرار وسائل الإعلام علاقة وثيقة.

على هذا الأساس فمن يجيد توظيف وسائل الإعلام ومن يمتلك ترسانة إعلامية قوية هو القادر على صناعة الرأي العام المحلي والدولي وتوجيهه، وهو القادر على صناعة الحقيقة،ذلك أن الأفكار والتوجهات والقناعات السياسية والإيديولوجية تحت سلطة من يمتلك مضامين إعلامية مدروسة ووسائل إعلام قوية.

على الرغم من الأصول اليهودية لنعوم تشومسكي، وعلى الرغم من أنه يحسب على البيئة الأمريكية إلا أنه قدم مراجعة نقدية قوية للسياسة الأمريكية وممارساتها اللامشروعة ، وقد اعتمد تشومسكي في ذلك على أسلوب يعتمد مقاربات تاريخية وسياسية عميقة حاور من خلاله الكثير من الأعلام والتيارات الفكرية.

تلعب السياسة الأمريكية على وتر وسائل الإعلام من منطلق أن الإعلام سلاح بيد السلطة، بل إن الإعلام في حد ذاته سلطة لها تأثيرها القوي في توجيه الرأي العام المحلي والدولي، وفي تغليف أساليب الهيمنة وتبرير استبداد الأنظمة السياسية.

يلعب الإعلام دورا محوريا في صناعة الصورة وفي التأثير على الجماهير بتوجيه تفكيرهم ومواقفهم ،وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قوة سياسية وعسكرية واقتصادية هائلة فإنها أكثر من ذلك تملك ترسانة إعلامية قوية قادرة على توجيه الرأي العالم الدولي الوجهة التي تريدها أمريكا والدول المساندة لسياستها، ذلك أن الحرب التي تخوضها الولايات المتحدة الأمريكية في تلميع صورتها، وفي إعطاء المشروعية لممارساتها تفرض أن تراهن على وسائل الإعلام.

إن الهدف وراء ذلك هو كسب التأييد الذي يعطي للولايات المتحدة الأمريكية كل المشروعية في استخدام الأساليب المتاحة (المشروعة وغير المشروعة)، وعلى الرغم من الاختلافات الشكلية بين الحكومات الأمريكية المتعاقبة إلا أن مضامين ممارساتها اللاإنسانية ظلت متوارثة، كما أن استغلالها لوسائل الإعلام ظل كذلك، والسؤال الأساسي الذي ننطلق منه هو : كيف تصنع السياسة الأمريكية الرأي العام الدولي والمحلي وتوجهه وفق آلية التضليل الإعلامي ؟

على هذا الأساس فإن الفرضية التي ننطلق منها في هذا السياق هي أن الممارسة الإعلامية في السياسة الأمريكية ممارسة موجهة لخدمة أهداف وأغراض سياسية بعيدا عن الشعارات الرنانة المعبرة عن الحياد والموضوعية والأبعاد الإنسانية التي تحرك العمل الإعلامي.

وعلى أساس هاته الفرضية نسعى إلى كشف التواطؤ الموجود بين الإعلام والسلطة، مثلما نسعى إلى كشف أهم أساليب واستراتيجيات التضليل الإعلامي، وآليات ترويض الجماهير، وسياسة الكيل بمكيالين التي تمارسها السياسية الأمريكية في تعاملها مع مختلف القضايا الدولية وفق منهج تحليلي ونقدي.

1- الإعلام والسلطة وآليات ترويض الجماهير:

ينطلق نعوم تشومسكي من فكرة أنه إذا كانت الديمقراطية هي فتح المجال لمشاركة الجمهور في الخيارات السياسية، فإنه وفق هذا الطرح يجب على وسائل الإعلام أن تكون حرة ونزيهة في تصوير الواقع ونقله كما هو دون تزييف للحقائق ، ولكن إذا كان هذا هو ما ينبغي أن يكون فما هو كائن خلاف ذلك : " إن المفهوم الآخر للديمقراطية هو أن يمنع العامة من إدارة شؤونهم، وكذا من إدارة وسائل الإعلام التي تظل تحت السيطرة المشددة "( ) ، طبعا السيطرة المشددة للنظام الحاكم، الذي يصور الحقائق والوقائع كما أراد لها النظام أن تكون وليس كما وقعت في الواقع.

تشكل الولايات المتحدة الأمريكية النموذج الأوضح والأفضح في الوقت ذاته في توجيه الرأي العام الدولي وحتى الأمريكي ذاته (الرأي العام المحلي) ، باعتبارها الصورة الأبرز عن النظام العالمي الجديد في استغلالها لكافة الوسائل المتاحة (هيمنة عسكرية، ثقافية، إعلامية ...) في فرض السيادة المطلقة ومنطق الهيمنة.

إن صناعة الرأي العام، خداعه، أو توجيهه قد تحتاج مؤسسات إعلامية وفكرية متخصصة في فهم الجماهير وترويضها مثلما تحتاج تشارك علوم مختلفة في فهم الأبعاد النفسية للجماهير وآليات التلاعب بعقولها، وفي هذا السياق قد تتشارك وسائل الإعلام مع الأنظمة السياسية في تحقيق هذا الهدف.

تلعب الدعاية دورا هاما في توجيه الرأي العام وصناعة الإجماع حول العديد من المواقف والقضايا السياسية والعسكرية الحاسمة، على هذا الأساس من منظور تشومسكي الإجماع مؤامرة يقوم بها رجال المال والأعمال ورجال السياسة لخلق الولاء للنظام القائم ليس إلا، والولايات المتحدة الأمريكية رائدة في مجال صناعة الدعاية ونشرها.

الدعاية نشاط يرغم الناس بشكل ما على أن يفعلوا شيئا كان يمكن ألا يفعلوه ، وإذا كانت الحرب في جوهرها تبادل منظم للعنف فإن الدعاية في أساسها عملية إقناع منظمة تستهدف العقل ( )، من منطلق أن الدعاية تستهدف إقناع الجماهير بفعل أمر ما، أو توجيههم نحو وجهة ما (غاية عسكرية، سياسية أو إيديولوجية ...) يريدها الطرف الذي قام بالدعاية خدمة لأهدافه ومصالحه.

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية لا تعرف لغة غير لغة المصالح فإن الأنظمة السياسية الأمريكية القديمة منها والحديثة، القائمة على مبادئ النظام الجمهوري أو الديمقراطي فإنها كلها وعلى اختلافاتها تلك تعيش بالدعاية وتجيد لغتها واستخداماتها.

إن التعددية الحزبية في الولايات المتحدة الأمريكية من منظور تشومسكي تعددية وهمية من منطلق أنها في الحقيقة تسير على نظام الحزب الواحد، والحزب الواحد هو حزب مشترك، والاختلافات بين الجمهوريين والديمقراطيين ليست اختلافات جوهرية( )، لأنه مهما كانت طبيعة الحزب الذي يحكم فإنه لا يخرج عن السياسة الأمريكية التي لم تتغير بتغير الرؤساء والحكومات منذ سنوات طويلة.

تعد الولايات المتحدة الأمريكية من أكبر الدول اهتماما بالموضوعات المتعلقة بالرأي العام والعلاقات العامة، ومسعاها في ذلك البحث عن مختلف الآليات والأساليب التي يتم من خلالها إخضاع الرأي العام للنظام السياسي ورجال المال والأعمال، إذ تخصص ميزانيات ضخمة ومراكز بحث متخصصة لفهم سيكولوجية الجماهير وآليات تطويعها.

ولترسيخ هذه المبادئ يقوم رجال الأعمال و القائمون على العلاقات العامة بعمل كبير في عملية توجيه الرأي العام عبر مختلف وسائل الإعلام وباستعمال كل أساليب التمويه والإغراء، والغرض من ذلك إقناع الجماهير وتوجيهها وفق ما تريده السياسة الأمريكية.

على هذا الأساس يتم الإشراف على معالجة وتنقيح الصور والمعلومات وإحكام السيطرة عليها، من منطلق أن الصور والمعلومات هي التي تحدد المعتقدات و المواقف والسلوك في النهاية( )، من ناحية أخرى ومن منطلق أيضا أن خيوط السيطرة الاجتماعية والهيمنة السياسية دقيقة جدا فإن التضليل الإعلامي من الأدوات الرئيسية في السيطرة ( )، هذا التضليل الذي تمثل فيه الولايات المتحدة الأمريكية الصورة الأوضح.

على هذا الأساس يمكن القول أن الإعلام الخاضع للنظام يشتت الجماهير حتى لا تتماسك، وحتى لا تتضافر جهودها في كيان واحد يقف في وجه النظام المهيمن، والغرض من تشتيت الجماهير خلق الولاء للنظام القائم بكل الطرق والأساليب ، على هذا الأساس فإن الدعاية تتم بإشراف الدولة، ولكن للأسف قد تدعمها الجماهير وحتى الطبقات المتعلمة بوعي أو دون وعي.

في هذا السياق يميز تشومسكي بين من توكل إليهم مهمة التسيير السياسي وبين العامة أو ما يطلق عليهم تشومسكي " القطيع الضال"، هذا القطيع الذي هو في الحقيقة مجرد مشاهد للحياة السياسية وليس بالعنصر الفاعل فيها ، ذلك أن منطق السادة والعبيد هو المنطق السائد في أغلب الأنظمة التي يعتقد أنها ديمقراطية، إذ لا يمكن الحديث عن الديمقراطية، إن الخيارات محددة سلفا، وحرية الاختيار بين خيارات موضوعة مسبقا لا تعني أبدا الحرية.

على هذا الأساس يمكن القول بأن الحملات الانتخابية تتحكم فيها عوامل خارجة عن عملية الاقتراع، فالرأي العام يخضع للنظام السياسي مثلما يخضع لسلطة رجال المال والأعمال الذين يوجهون المسار الانتخابي وفق ما يخدم مصالحهم، بل وأكثر من ذلك يمنعون الجماهير بكل السبل من الوصول إلى الحكم، حتى وإن تطلب الأمر أساليب دعائية مضللة وكاذبة.

ينبغي أن يظل الناس مشتتين وليس لديهم طريقة للتنظيم ولا بإمكانهم التعبير عن مشاعرهم، أو حتى أن يعلموا أن الآخرين لديهم المشاعر نفسها( )، حتى لا يخلق القطيع الضال معارضة حقيقية، والنتيجة الحتمية لذلك هي جعل الجماهير غريبة عن بعضها البعض، لا تعرف مشاعرها الحقيقية تجاه موضوع ما، أو قضية حساسة.

من ناحية أخرى حتى المؤسسات الثقافية والتربوية ليست بريئة إذ تساهم وبشكل كبير في ترويض الجماهير وتوجيه الرأي العام، على الرغم من أن رسالتها التي كان من المفروض أن تقوم بها هي تنوير الجماهير لا تطويعها ، فإنها باتت هي الأخرى لا تخرج على الإطار والأنموذج الذي يريده النظام السياسي.

من استراتيجيات ترويض الرأي العام تمرير خطابات الحفاظ على المصلحة العامة ، وهدف ذلك هو إعطاء المشروعية للممارسات اللامشروعة في الغالب، فباسم المصلحة العامة يتم اخضاع الجماهير وتطويعها ، من منطلق أن

أية محاولة تغيير من الجماهير يتم تكييفها بأنها خروج عن المصلحة العامة، كما أن هناك لعبة أخرى يقوم بها الإعلام الموجه لخدم السلطة ومن توكل لهم دراسات الجماهير، تتمثل في تشتيت كل الأنظمة السياسية التي تولد خارج التنظيم السياسي السائد والمهيمن،

ومثلما يسعى النظام السياسي إلى ترويض الجماهير عبر ترويض المؤسسات التعليمية والتربوية، فإن النظام السياسي قد يلجأ لإستراتيجية أخرى تتمثل في ترسيخ منطق الاستهلاك عبر بوابة وسائل الإعلام دائما،فإذا كان تشتيت الجماهير من المطالب الأساسية لتحقيق هيمنة النظام الحاكم فإن تنويم الجماهير بتعزيز الرغبة في التملك وحب الاستهلاك قد تعتبر إستراتيجية ناجحة في ترويض الجماهير أيضا : " لا يمكن السيطرة على الشعب بالقوة لكن يمكن إلهاءه بالاستهلاك " ( )،والولايات باعتبارها الصورة الأوضح للنظام الرأسمالية تعتبر رائدة في أسلوب الترويض ببوابة الترويض الاقتصادي بفرض منطق الاستهلاك.

الجماهير أو القطيع الضال ينبغي إلهاءه بمواد إعلامية مسخرة لتخديره كالمسلسلات والدراما وأفلام الجنس والعنف وكلها عناصر إلهاء تبعد القطيع الضال عن مطالبه الحقيقية( )، و التالي ستضل الجماهير تلهث وراء أمور في الغالب تافهة ،وتنسى الأمور الجدية ومطالب التغيير الحقيقي.

ومن الأساليب الأخرى التي قد يلجأ إليها النظام السياسي صناعة بؤر توتر داخلية وخارجية (خلق تهديدات داخلية وخارجية) كآلية من آليات تخويف الجماهير وإعطاء المشروعية للكثير من ممارسات الأنظمة القائمة، أي منع القطيع الضال من كل تفكير خارج ما يريده النظام الحاكم، وشل كل حركة تغيير من الجذور، والنتيجة الحتمية لذلك هي ألا تكون الجماهير مؤهلة لأي تغيير(ليس لها غير الطاعة والحفاظ على المصلحة العامة والأمن الداخلي والخارجي كما يتحجج النظام القائم دوما) ، والولايات المتحدة الأمريكية رائدة في مثل هذه الممارسات.

من ناحية أخرى ومن منطلق أن الجماهير أو القطيع الضال بلغة تشومسكي لا يتم ترويضه بشكل نهائي ، فإن النظام السياسي يحتاج في كل مرة إلى تنويع الأساليب والاستراتيجيات لترويض الجماهير وتطويعها، أي بحاجة دائمة لفهم أعمق للجماهير وتحولاتها السوسيولوجية والنفسية، والمعرفية والثقافية.

2- النظام السياسي وقولبة المفاهيم :

شكل اهتمام نعوم تشومسكي باللغة مدخلا قويا في فهم الذات الانسانية وكل ما يتعلق بها من قضايا سياسية وأخلاقية،ثقافية واقتصادية، ومن منطلق أن اللغة موطن الكينونة فإنه يمكن القول أنه بين اللغة والسياسة علاقة وثيقة جدا، إذ تشكل اللغة التي تستخدمها الأنظمة السياسية مع الجماهير سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي مسألة حساسة ، فالتوجيه السياسي للجماهير يتم بالأساليب اللغوية، والهيمنة السياسية تمر عبر الأساليب اللغوية المراوغة، وبالتالي الفهم السياسي الصحيح لا ينبغي أن يتحقق بشكل سليم إلا بالغوص في البنى العميقة للغة المستخدمة في الحقل السياسي.

تلعب الانظمة السياسية وبالاعتماد على وسائل الإعلام : " بابتكار شكل ملائم للغة جديدة تكون المصطلحات الفاصلة فيها معنى فني منفصل عن معانيها المألوفة"( )، على هذا الأساس يتم التلاعب بالمفاهيم والمصطلحات بما يخدم إيديولوجيا معينة.

ينطلق تشومسكي من فكرة أن مصطلحات السياسة لها معنيان: المعنى المعجمي المتعارف عليه، والمعنى الذي يخدم إيديولوجيا الأقوى، وبالتالي هناك إطار سياسي قائم يجب أن نفهم من خلاله المفاهيم، فصناعة المفاهيم، أو تحوير معانيها حرفة تجتهد الأنظمة المهيمنة والمسيطرة لاحترافها، والأمثلة في ذلك كثيرة.

مفهوم الإرهاب من المفاهيم التي تم تداولها بشكل كبير في الآونة الأخيرة في الحقل السياسي والإعلامي، وهو مفهوم مطاط، يتم تطويعه وصياغته بالصورة التي تراها الولايات المتحدة الأمريكية وبالصورة التي تخدمها ، بمعنى آخر صناعة خطاب يتم من خلاله التصنيف بين ما هو إرهابي وما هو خلاف ذلك، طبعا وفق ما يخدم مصالحها دائما، وهي اللغة التي تجيدها الولايات المتحدة الأمريكية (لغة المصالح) .

على هذا الأساس يمكن أن تصنف الولايات المتحدة الأمريكية ما تقوم به المنظمات الفلسطينية ضمن خانة العمل الإرهابي، في حين : " لا تندرج أعمال القصف الدموي، واحتجاز الرهائن، والهجوم على القرى الضعيفة تحت مفهوم الإرهاب عندما تديره واشنطن وحليفتها إسرائيل"( )، كما يمتد مفهوم الإرهاب لإيران، وأفغانستان، والعراق، والمنظمات الفلسطينية ...وفق منظور الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها.

إن مفهوم الإرهاب صفة يمكن أن تلصقها الولايات المتحدة الأمريكية بأي كيان سياسي وعسكري لا يسير وفق المنهج والطريق الذي رسمته مع حلفاءها، فيمكن أن تلصق صفة إرهاب أو دولة إرهابية على العراق أو إيران أو ليبيا أو أفغانستان...، كما يمكن أن تنزع عنها هذه الصفة تحت مصلحة ما.

مثال آخر : مصطلح عملية السلام، فالمقصود بذلك هو السلام بمنظور الولايات المتحدة الأمريكية وحليفتها إسرائيل وليس وفق ما ينشده ويتمناه الشعب الفلسطيني. وهكذا يتم تصوير إسرائيل بأنها تنشد القيم العليا، في حين يمثل الفلسطينيون الصورة الأوضح للتطرف والإرهاب والوحشية( )، لا لشيء إلا لأن إسرائيل عميلة وخادمة لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

عملية السلام في معناها الذي يخدم الولايات المتحدة الأمريكية : " هو أن تعطل الولايات المتحدة الأمريكية كل سبل السلام وتدعم إسرائيل سياسيا واقتصاديا وعسكريا " ( )، ذلك أن عملية السلام في الشرق الأوسط لا تعني أبدا تنفيذ إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة وانسحابها من الأراضي الفلسطينية التي احتلتها.

أما عن مفهوم الديمقراطية فيمكن القول أنه إذا كانت الديمقراطية في معناها المعجمي المتعارف عليه إشراك الشعب في إدارة شؤونه، فإنها بالمعنى الذي يخدم إيديولوجيا الأقوى تعني :" نظام تتخذ فيه صفوة رجال الأعمال القرارات ويشاهد عامة الناس ذلك دون أن يشاركوا فيه"( ).

من هنا يمكن القول أنه لما يتعلق الأمر بالانتخابات فإن أغلب الدول التي تصور نفسها على أنها ديمقراطية والولايات المتحدة واحدة منها هي خلاف ذلك، فالحملات الانتخابية يتحكم فيها أرباب المال والأعمال ولا يوجهها التصويت أو الإرادة الشعبية.

3- حرب الخليج وصناعة العدو:

تشكل حرب الخليج واحدة (وليست الوحيدة) من بين أفضح ممارسات السياسة الأمريكية التي جسدت حب السيطرة والرغبة في تملك العالم بكل الأساليب (المشروعة منها اللامشروعة) ، وفي هذا السياق تشكل فكرة صناعة العدو التي اعتمدتها الولايات المتحدة الأمريكية آلية جديدة وأسلوب جديد في الهيمنة.

مع زوال القطبية الثنائية (الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي) سعت الولايات المتحدة الأمريكية لخلق أعداء جدد (العراق، وأفغانستان، وإيران...)، وخلق بؤر توتر جديدة صنعتها الولايات المتحدة، إذ وبعد سقوط الاتحاد السوفياتي وظهور القطبية الأحادية وجدت الولايات المتحدة الأمريكية أنها مطالبة بخلق أعداء جدد لتحافظ على قوتها وحضورها الدولي باعتبارها الدولة الأقوى.

تهدف فكرة صناعة العدو في جانب من جوانبها في كسب التأييد الداخلي (مساندة الشعب الأمريكي للحكومات الأمريكية)، أما على المستوى الخارجي فتكمن أهمية استراتيجية صناعة العدو في كسب التأييد الخارجي، وذلك بجعل الأنظمة السياسية العالمية تساند السياسة الأمريكية (تطويع الرأي العام الدولي) في الحفاظ على السلام العالمي وفق ما تحاول الترويج له .

شكلت حرب الخليج سواء الأولى أو الثانية بين العراق والولايات الأمريكية وحلفاءها صورة واضحة على التحدي الصارخ للقوانين الدولية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية،ذلك أن القانون في الغالب مثل نسيج العنكبوت تقع فيه الطيور الصغيرة وتهرب به الطيور الكبيرة، إذ يطبق القانون على الدول الضعيفة أو الدول القوية فهي فوق القانون،إذ وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة لم تثبت وجود أسلحة دمار شامل بالعراق فإنها بررت غزوها للعراق بنية العراق في صنع أسلحة نووية، وما هي في الحقيقة إلا مبررات واهية تحركها دوافع أخرى غير هاته الدوافع.

من ناحية أخرى استغلت الولايات المتحدة الأمريكية أحداث 11 سبتمبر 2001 لتمارس من خلالها عملية الضبط الاجتماعي والسياسي على سكانها، بتحكم وسيطرة أكبر (هذا على المستوى الداخلي) ، أما على المستوى الخارجي فقد استغلت الولايات المتحدة الأمريكية أحداث 11 سبتمبر لتكون لها الحرية المطلقة في ممارسة هيمنتها، فالنظام العالمي الجديد يجب أن يكون تحت أوامر ونواهي الولايات المتحدة الأمريكية.

إثارة الخوف لتعبئة الناس ليس جديدا في عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001 ( )، فقد استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية هاته الاستراتيجية من قبل كآلية لتعبئة الجماهير لمساندة النظام على المستوى الداخلي، وإعطاء الشرعية لممارساتها اللامشروعة على المستوى الخارجي من جهة أخرى.

اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من الحجج الواهية كذريعة لغزو العراق، منها أن العراق دولة يقودها نظام ديكتاتوري، تحوز على أسلحة نووية،وبالتالي هي ركيزة حقيقية للإرهاب الدولي ،فهي بذلك تمثل تهديدا كبيرا على السلام العالمي،و كل هذه المبررات كان الهدف من وراءها كسب التأييد الدولي فيما قامت وتقوم به الولايات المتحدة الأمريكية تجاه العراق.

شكلت الشيوعية واحدة من أهم المبررات التي سهلت على العدوان الأمريكي فرض نفوذه على الكثير من الدول أثناء الحرب الباردة ،واليوم لا توجد مبررات أخرى غير فرض السيطرة والهيمنة لفرض القطبية الأحادية على العالم،ورسم معالم نظام عالمي جديد تقوده الولايات المتحدة الأمريكية بسيادة مطلقة وسلطة لا محدودة .

إذا رجعنا إلى الوراء قليلا، إلى ما قبل حرب الخليج فإنه مثلا على الرغم من وجود أدلة ساحقة على استخدام العراق لأسلحة كيمياوية ضد الأكراد 1988 ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية (إدارة ريغن) عارضت بقوة العقوبات المسلطة على العراق،بل أكثر من ذلك زادت من دعمها للعراق ( ) ، حيث قدمت له دعما ماديا وعسكريا من منطلق أنها بحاجة إليه وإلى نظام صدام حسين في حربها ضد إيران والأكراد في تلك الفترة،وعندما لم تعد الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى العراق وتخشى أن يتحول إلى قوة إقليمية كبيرة جعلته العدو الأول لها.

أعلنت واشنطن ولندن أن العراق يشكل تهديدا لجيرانه وللعالم بأسره، وأنها دولة خارجة عن القانون يقودها صدام حسين الذي يتقمص شخصية هتلر ،على هذا الأساس ينبغي القضاء على قوة العراق وديكتاتورية نظامه من قبل حراس النظام العالمي (الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا كما نصبا أنفسهما) على خلاف ذلك حلفاء أمريكا وبريطانيا ينتهكون القوانين الدولية بشكل صارخ مثلما يفعل الكيان الصهيوني مع تأييد مطلق من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا.

لقد اعتبرت الولايات المتحدة الأمريكية أن لها الحق في استخدام القوة ضد العراق، فهي تلعب دور الشرطي، وفي هذا السياق يرى تشومسكي أن في ذلك: " إهانة للشرطة التي من المفترض أن تفرض القانون من حيث المبدأ لا أن تمزقه إلى شظايا " ( )، وهدفها في ذلك أن لا تكون العراق دولة قوية ،والأمر نفسه فعلته مع إيران وأفغانستان والكثير من الدول الأخرى ،بل أكثر من ذلك استخدمت حق النقض في الكثير من القرارات الدولية وفق ما يتماشى مع مصالحها الخاصة بعيدا عن مفاهيم حقوق الإنسان والمعاهدات الدولية،في الحقيقة تجاوز الولايات المتحدة الأمريكية للقوانين الدولية ليس بالأمر الجديد ،بل إن مثل هذه الممارسات متأصلة بشكل عميق في السياسة الأمريكية.

4. تغلغل الحركات الصهيونية في المنظمات المالية والإعلامية الأمريكية :

غرست الحركات الصهيونية جذورها في أغلب المؤسسات العالمية، وعندما يتعلق الأمر بالولايات المتحدة الأمريكية فإنه يمكن القول أنه لا تكاد تخلو مؤسسة من المؤسسات الحساسة من هيمنتهم و سيطرتهم ، كما أن أغنى العائلات في الولايات المتحدة الأمريكية عائلات يهودية،ومسعاهم في ذلك توجيه السياسة الأمريكية خدمة لمصالحهم فالمال والإعلام والسياسة في خدمة السياسة الصهيونية.

من ناحية أخرى تعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع القضية الفلسطينية يكشف سياسة الكيل بمكيالين التي تعتمدها الولايات المتحدة الأمريكية في مساندة معلنة وصريحة للسياسة الصهيونية، أما عن المحاولات التي تعتمدها أمريكا بين الفينة والأخرى نحو إيجاد حلول للقضية الفلسطينية فما هي إلا ذر للرماد في العيون، لأنه لا توجد نية حقيقية في ذلك.

وحول القضة الفلسطينية يرى تشومسكي أن الولايات المتحدة الأمريكية أحبطت سياسة التسوية بين إسرائيل وفلسطين منذ أكثر من 33 سنة ( ) ،فهي تدعم الكيان الصهيوني بشكل صريح ومعلن ،إذ استعملت نفوذها العسكري

والإعلامي والمالي في تأييدها للسياسة الإسرائيلية التوسعية في فلسطين ،فهي بذلك من أكثر الدول تعصبا باستخدام كل أساليب الهيمنة بما في ذلك تطويع الكثير من الأنظمة الرأسمالية خدمة لمصالحها.

هناك علاقة وثيقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل بحكم لغة المصالح ،فالسياسة الأمريكية يحركها منطق المصلحة مع كل الدول التي تتعامل معها، ففي السياسة الأمريكية لا يوجد صديق دائم ولا عدو دائم ، وإنما هناك مصالح تنتهي الصداقة عندما تنتهي المصالح.

تحتل إسرائيل المرتبة الأولى في انتهاك قرارات الأمم المتحدة ( )، فإسرائيل قاعدة عسكرية للولايات المتحدة الأمريكية، وعلاقاتها القوية بالولايات المتحدة الأمريكية تجعلها تستجيب بشكل مطلق للمطالب الأمريكية والأمر نفسه من الطرف الآخر.

يمارس العنصر الصهيوني أسلوب ضغط رهيب على السياسة الأمريكية، بسيطرتهم على المؤسسات الحاكمة ،و على مصادر صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية ،ذلك أن أكبر المؤسسات الاقتصادية والمالية تحت السيطرة اليهودية كما أرباب المال اليهود هم من يتحكم في صيرورة الانتخابات الأمريكية وتوجيهها ، فهم من يمول الأحزاب في الحملات الانتخابية ، وهم من يتحكم في وسائل الإعلام ، ومهما كان الحزب الفائز في الانتخابات فإنه سوف يخضع للهيمنة اليهودية بشكل أو بآخر.

يسيطر اليهود على أكبر المجمعات الإعلامية مثل مجمع Walt Disney، ومجمع Time Warner مما يجعل المضامين الإعلامية والترفيهية في القنوات الإذاعية و التليفزيونية التابعة لهاته المجمعات الكبرى تتغاضى عن الكثير من الجرائم التي يرتكبها الكيان الصهيوني في فلسطين،وفي الكثير من البلدان العربية والإسلامية ،بل على خلاف ذلك تسعى هذه القنوات لتلميع صورة الكيان الصهيوني.

وهذا ما لمسناه جميعا في معالجة أكبر القنوات التلفزيونية الأمريكية لكل ما يتعلق بالكيان الصهيوني القنوات الإخبارية مثل : NBC و ABC و CBC تصور هذا الكيان في ثوب الضحية،وتقدم للمشاهد وجه آخر للكيان الصهيوني مثلما تحاول أن تنقل صورة مأساوية للاضطهاد الذي يعيشه اليهود في كل بقاع العالم ،كما أن هذه القنوات وغيرها من القنوات الأمريكية الخاضعة لسيطرة اليهود تبرر دائما جرائم الكيان الصهيوني بأنها دفاع عن النفس.

تحكم العنصر اليهودي في مصادر المعلومة بالولايات المتحدة الأمريكية لم يقتصر على القنوات الإذاعية والتلفزيونية بل حتى الصحافة المكتوبة على غرار مجلات سياسية معروفة مثل Newsweek، وصحف يومية لها مقرؤية كبيرة مثل New York Times وصحيفة Washington Post وغيرها من المجلات والصحف السياسية التي تخضع لسيطرة اليهود، من ناحية أخرى لم يسلم الإنتاج السينمائي من ذلك، فعلى الرغم من ضخامة الإنتاج السينمائي الأمريكي الذي تجسده هوليود لا نجد أفلاما تصور فضاعة جرائم الكيان الصهيوني.

5- العولمة ورهانات الإعلام : المعايير الأخلاقية في السياسة الأمريكية

تشكل الولايات المتحدة الأمريكية الحلقة الأقوى في النظام العالمي الجديد، ذلك أن أي حديث عن العولمة أو عن القطبية الأحادية يرتبط بشكل أو بآخر بالولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها الكيان الموجه للسياسات العالمية من قريب أو بعيد.

أما الحديث عن المعايير الأخلاقية في الممارسات السياسية فقد باتت آخر ما يفكر فيه، إذ انفصلت الممارسات السياسية عن المعايير الأخلاقية بشكل واضح ، وفي هذا السياق شكلت أحداث 11 سبتمبر 2001 منعطفا جديدا في السياسة العالمية ، وفي تغيرات جذرية في الكثير من الممارسات والمفاهيم السياسية.

يؤكد تشومسكي في سياق موقفه من العولمة أنه مع الذين يؤيدون العولمة ،ولكن تلك العولمة التي تضع حقوق الإنسان ضمن أولوياتها، العولمة التي تسعى إلى التكامل الاقتصادي العالمي أما : " العولمة التي لا تضع حقوق الناس ضمن أولوياتها ستتحول حتما إلى شكل من أشكال الحكم الاستبدادي( )، تطالب الدول القوية المتغطرسة الدول الضعيفة للاعتراف بجرائمها والتعويض عن هاته الجرائم وتتناسى هذه الدول العظمى أنها أكثر إجراما.

الولايات المتحدة الأمريكية صورة واضحة عن الدول الجائرة التي لا تلتزم لا بالمعايير الدولية ولا بالمبادئ الأساسية التي تحكم النظام العالمي ،وتحت غطاء مبررات واهية وباستخدام ترسانة إعلامية كبيرة راحت تبرر سطوتها على الدول الضعيفة مستغلة مواردها الطبيعية والبشرية.

إن ما تريده أمريكا هو أن تكون دولة جبارة، لغرض السيطرة على الحياة الشخصية والعالم الاقتصادي والمجتمع الدولي، أي دولة استبدادية وقمعية ، وما إدارة جورج بوش إلا صورة لأقصى تطرف لها( )، حتى باراك أوباما الذي قدم نفسه كما يرى تشومسكي كشخص جذاب وودود، وكصفحة بيضاء يستطيع مشاهديه أن يكتبوا عليها آمالهم ورغباتهم هو خلاف ذلك.

من ناحية أخرى باسم " فرض النظام الديمقراطي " في العالم " تنتهك الولايات المتحدة الأمريكية خصوصيات دول وتتدخل في شؤونها، رغم أن النظام الأمريكي ذاته نظام غير ديمقراطي ، تحت هيمنة المؤسسات والمنظمات الاقتصادية التي توجهه بناء على مصالحها،فمفاهيم من قبيل " الديمقراطية " و " حقوق الإنسان " و" مبادئ السلام العالمي "،و" الاقتصاد الحر " هي غطاء للهيمنة ليس إلا،تلعب فيه وسائل الإعلام المساندة للسياسة الأمريكية دورا محوريا في تمرير مثل هذه الخطابات الرنانة الجوفاء على الرأي العام الدولي.

ما ينتقده تشومسكي في أمريكا ليس الشعب الأمريكي الذي يعيش حاضره بطموح، والذي يستشرف مستقبله بطموح أكبر، إن ما ينبغي أن يكون محور نقد هو السياسة العسكرية الأمريكية للهيمنة على العالم هذا ما يجعلها موضع مراجعة واحتقار ( )،

من ناحية أخرى اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية من الشركات المتعددة الجنسيات أو العابرة للقارات استراتيجية قوية في بسط نفوذها على أغلب بلدان العالم في استثمارات كبيرة في مجالات اقتصادية متنوعة،مستغلة في ذلك المواد الأولية واليد العاملة الرخيصة في بلدان العالم الثالث ،لذلك فهي تحصل على أرباح كبيرة مقارنة بما تحصل عليه البلدان التي تتعاقد معها،كما أن لها امتيازات كبيرة في تعاملها مع المؤسسات المالية العالمية (قروض ، تسويق، مسح ديون ...) التي هي تحت سلطة أمريكا وحلفائها.

تسعى الولايات المتحدة الأمريكية جاهدة لفرض نمط الحياة الأمريكية على سكان المعمورة ،بفرض نمطها الثقافي بالأبعاد التي يرسخها مجتمع الإستهلاك ،وفي هذا السياق وظفت مختلف وسائل الإعلام السمعية والبصرية والمكتوبة لفرض النمط الأمريكي ،لقد أصبحت هذه الآلية الجديدة أخطر أنواع الهيمنة لأنها تمس بالكثير من الثوابت والقيم

الدينية والاجتماعية ،ونموذج الإنسان الذي ترسخه تحركه الغرائز والمنطق المادي وحب التملك و إطار قيمي جديد،ذلك أن الكثير مما تستثمر فيه بعض الشركات العالمية يتعارض مع الإطار القيمي لبعض المجتمعات خاصة العربية والإسلامية منها.

تهدد الكثير من الشركات الأمريكية المستثمرة في الخارج السيادة الوطنية للبلدان التي تستثمر فيها ،وذلك لضخامة استثماراتها وطبيعة العقود التي تربطها بها ،إذ تتدخل في الشؤون السياسية ،مثلما تفرض شروط تعسفية،وبالتالي أضحت بوابة حقيقية لاستعمار جديد،الأكثر من ذلك تحتكر هاته الشركات التكنولوجيا وتقنيات الإنتاج ،والغرض من هذا الاحتكار هو أن تترك البلدان التي تستثمر فيها في تبعية دائمة لها ،على هذا الأساس على البلدان النامية أن تدرك أن أسلوب الاعتماد على الشركات الأجنبية أسلوب مدعم للإنتاج المحلي ولا يمكن الاعتماد عليه كأسلوب بديل.

سخرت الولايات المتحدة مؤسسات إعلامية ضخمة في الترويج لشركاتها ومنتجاتها الصناعية والزراعية ووسائل النقل والمعدات الحربية ،مثلما تروج للمؤسسات والمنتجات الاستهلاكية التي أضحت ذات بعد عالمي (بيبسي،ماكدونالد...)، أو السينمائية (مثل منتجات هوليود) والمنتجات المتعلقة بالموضة ،والمسعى في ذلك هو ترسيخ مبدأ الاستهلاك لغرض التسويق الذي هو منطق النظام الرأسمالي.

الخاتمـــة:

تكشف الممارسات السياسية الأمريكية عن تشارك قوي بين الإعلام والسلطة في فرض هيمنة حقيقية ،وقد سعى نعوم تشومسكي بأسلوب نقدي قوي أن يفضح ألاعيب السلطة السياسية خاصة النظام الأمريكي وأساليب في ترويض الجماهير سواء على الصعيد الداخلي (على المجتمع الأمريكي) أو الدولي ،كما أن النظام الأمريكي لم يتغير في مسعاه نحو الهيمنة على العالم بتغير الأنظمة السياسية الحاكمة،وإنما تغير الأنظمة هو تغير أساليب وطرق الهيمنة ليس إلا.

تلعب استراتيجيات الدعاية والتضليل الإعلامي وقولبة المفاهيم السياسية دورا هاما في مختلف ممارسات الأنظمة السياسية في مختلف دول العالم ،ولكن لما يتعلق الأمر بالولايات المتحدة الأمريكية فإن هذه الاستراتيجيات والأساليب المراوغة أكثر حضورا وأخطر أسلوبا.

تسيطر الولايات المتحدة الأمريكية على أكبر المؤسسات الإعلامية العالمية ،هذه المؤسسات التي توكل إليها مهمة توجيه الرأي العام الدولي تجاه الكثير من القضايا الدولية الحاسمة،من منطلق أن الإعلام يشكل ميكانيزم قوي في فرض النظام العالمي الجديد.

لكي تهيمن ينبغي إخضاع الجماهير ، وعملية ترويض الجماهير تحتاج تضافر حقول معرفية متنوعة (علم النفس، علم الاجتماع ، أنتربولوجيا ...) وأموال ضخمة ومؤسسات متخصصة كل ذلك بيد الولايات المتحدة الأمريكية فهي رائدة في هذا المجال ،مثلما هي رائدة في قولبة المفاهيم السياسية وتضليل الرأي العام الدولي.

مارست الشركات الأمريكية الكبرى هيمنة حقيقية على دول العالم الثالث في إفريقيا وأمريكا اللاتينية وفي دول الخليج والدول الآسيوية الضعيفة في استنزاف خيرات الشعوب ، وقد لعب الإعلام دورا هاما في تبرير ذلك تحت غطاء " الاقتصاد المفتوح على العالم "،والحقيقة أن الهيمنة الاقتصادية بوابة للهيمنة السياسية والعسكرية والثقافية.

استراتيجية صناعة العدو استراتيجية قوية تستخدمها الولايات المتحدة الأمريكية بشكل كبير خاصة خلال السنوات القليلة الماضية، ويشكل الضخ الإعلامي في تصوير الأخطار الناجمة عن العدو المصطنع استراتيجية مهمة في كسب التأييد الدولي لممارسة القمع والهيمنة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية على الكثير من الدول (العراق، إيران، أفغانيستان...)، كما أن أحداث 11 سبتمبر 2001 تعتبر بوابة حقيقية لفهم الكثير من التحولات على مستوى النظام الأمريكي في ممارساته السياسية والإعلامية والعسكرية.

لم ترتبط أفكار تشومسكي بالتنظيرات السياسية بل أكثر من ذلك كانت له العديد من المواقف التي جسدها انخراطه في العمل النقابي في العديد من المنظمات، انتقد من خلالها بشدة السياسة الأمريكية على المستوى الداخلي والخارجي واعتبر ذلك من مهمة المثقف الحقيقي، وعلى الرغم من أصوله اليهودية انتقد تشومسكي الأوهام التي بناها الكيان الإسرائيلي ، والمساندة الأمريكية المطلقة لهذا الكيان ، وبقدر ما لقيت أفكار تشومسكي ترحيبا كبيرا قوبلت الكثير من أفكاره بالنقد .

قد تصنف أعمال تشومسكي ضمن التيارات اليسارية الفوضوية من منطلق دفاعه المطلق عن الحرية ، ولكن علينا أن نقر بأن مسعى تشومسكي هو تغيير العالم ،ووظيفة التغيير هذه من المطالب الأساسية ، كما أن الدفاع عن الحرية ضد مختلف الإيديولوجيات والدكتاتوريات من الواجبات الأخلاقية الكبرى ،لهذا على المثقف الحقيقي أن يحمل على عاتقه هذه المسؤولية في كتابة التاريخ،وفي نقل ونقد ومراجعة ما يحدث.

إن المسعى وراء كل هذا توعية الجماهير،وخلق فرد فعال ، وجمهور لا ينساق وراء ثقافة الاستهلاك (حتى لاينسى قضاياه المصيرية) ، كما أن المسعى وراء ذلك أيضا هو أن نعمل بجهد مضاعف في تفعيل دور مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية من المدرسة إلى المؤسسات الاجتماعية والثقافية الأخرى لتحرير الإنسان من مختلف أشكال الهيمنة .

قائمة المصادر والمراجع :

الكتب :

- نعوم تشومسكي، السيطرة على الإعلام، الإنجازات الهائلة للبروباجندا، ترجمة أميمة عبد اللطيف، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة، ط1، 2003.
- نعوم تشومسكي ، أشياء لم تسمع بها أبدا، لقاءات ومقالات،ترجمة أسعد الحسين، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا،2010.
- نعوم تشومسكي ، إرهاب القراصنة وإرهاب الأباطرة، ترجمة أحمد عبد الوهاب، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2005.
- نعوم تشومسكي، ماذا يريد العم سام ؟، دار الشروق، ترجمة عادل المعلم، القاهرة ،ط1، 1998.
- نعوم تشومسكي، الدولة المارقة، استخدام القوة في الشؤون العالمية، ترجمة أسامة إسبر، مكتبة العبيكان، السعودية ،ط1، 2004 .
- نعوم تشومسكي، الهيمنة أم البقاء، السعي الأمريكي إلى السيطرة على العالم، ترجمة سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، لبنان،2004 .
- نعوم تشومسكي، من يمتلك العالم، ترجمة أسعد الحسين، دار نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، 2014.
- هربرت شيللر ، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999.
_ فيليب تايلور، قصف العقول، ترجمة سامي خشبة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000.